سؤال

لا[1] يكاد يلقيه أحد على أحد لأن جوابه مرسوم فى القلوب ، ماثل أمام العيون ، يحسه الناس جميعا ، لا يختلفون فيه إلا أن يكونوا صحفيين تدفعهم الضرورات الصحفية إلى أن يكتبوا فصلا من الفصول .

وهذا السؤال متصل بالمندوب السامى الذى أقصى عن مصر منذ أيام : أنجح هذا المندوب فى مهمته التى أقام لها فى مصر أعواما ؟ أم قضى الله عليه بالفشل والإخفاق ؟ ألق هذا السؤال على من شئت من المصريين فسيجيبك فى غير تردد ولا اضطراب إلا أن يكون صحفيا تلزمه الضرورات أن يكتب فصلا من الفصول ، أو تضطره ظروفه السياسية الخاصة إلى أن يرى لنفسه رأيا يؤمن به ، وللناس رأيا آخر يعيش منه . سيجيبك هذا المصرى بأن المندوب السامى المنقول لم يظفر بقليل ولا كثير من النجاح .

فنجاح المندوب السامى فى مصر ينظر إليه فيما يظهر من وجهين اثنين لا ثالث لهما : أحدهما مصرى والآخر إنجليزى . فهو ينجح

---

(١) ١٨ - ٨ - ١٩٣٣

عند المصريين إذا استطاع أن يزيل ما بين مصر وإنجلترا من أسباب الخلاف والخصومة ، أو يقرب ما بينهما من آماد هذا الخلاف وهذه الخصومة فيقضى على ما يثور فى نفوس المصريين من عواطف السخط على الإنجليز والتنكر لهم ، وسوء الظن بهم . أو يخفف من هذه العواطف لما يثير فى النفوس بسيرته من أن الإنجليز ليسوا من الاعتداء والطغيان بحيث كان الناس يظنون ، وإنما هم أنصار العدل ، والداعون إليه ، وحماة الإنصاف والحريصون عليه وأصحاب السلم والصلات التى تقوم على المودة والاحترام ، لا على القوة والبأس ، ولا على البطش والعدوان .

هنالك قد لا يطمئن المصريون كل الاطمئنان إلى هذه الآمال ولا يثقون بها كل الثقة ، ولكنهم لا يجحدونها ولا يلحون فى إنكارها والنفور منها . وهنالك تجرى الأمور بين المصريين والإنجليز فى طريق معتدلة مستقيمة خليقة أن تؤدى إلى الاتفاق الذى يعتمد على المودة والحب وعلى التقدير والاحترام . وهو ينجح عند الإنجليز بنفس هذه السيرة التى ينجح بها عند المصريين لأنه يريحهم من بغض المصريين لهم ، وسوء ظن المصريين بهم ، ويمكنهم من أن يتموا ما أرادوا غير مرة من الانتهاء إلى الاتفاق الشريف بينهم وبين هذه البلاد .

وقد ينجح عند غلاة المستعمرين من الإنجليز إذا استطاع أن يقهر المصريين ويذلهم ويمحو من أنفسهم عاطفة الكرامة والعزة ، وينسيهم الاستقلال والسعى إليه ، ويصرفهم إلى الطاعة المطلقة ، والخضوع فى غير مقاومة ولا محاولة للمقاومة . هنالك يأمن الإنجليز أمر

المصريين بالقهر ، لا بالحب ، ولكنهم يأمنونه على كل حال . وأهم ما يحرص عليه الإنجليز إنما هو أن يأمنوا أمر المصريين ويستريحوا منهم ، ويفرغوا لغيرهم من الشعوب . فسل من شئت من المصريين بعد ذلك أى لون من ألوان النجاح وفق إليه المندوب السامى القديم فى مصر ؟ أتراه قد قرب الأمد بين المصريين والإنجليز أو خفف ما بينهم من خلاف وخصومة أو محا ما فى النفوس من السخط والبغض ، ومن الريبة وسوء الظن ؟ أو جعل الانجليزى إذا اتصل بالمصريين وتحدث إليهم يشعر شعورا واضحا قويا بأنه يتحدث إلى قوم أصدقاء يحبونه ويكلفون به ؟ أو يتصل بقوم لا يحبونه ولكنهم لا يبغضونه ، لا يأمنون إليه ولكنهم لا يخافون منه ، لا يثقون به ولكنهم لا يرتابون فيه .

نظن أن الجواب على مثل هذا السؤال لا يحتاج إلى تفكير ، فلم يبلغ سوء ظن المصريين بالإنجليز فى يوم من الأيام ما بلغه الآن ، لا نستثنى من ذلك إلا أيام الثورة حين كانت الدماء تسفك والنفوس تزهق بأيدى الإنجليز . وإذن فلم يستطع المندوب السامى أن يقرب بين المصريين وبين مواطنيه ، وإنما استطاع أن يباعد بين مصر وإنجلترا فيمعن فى هذه المباعدة وينتهى بها إلى اقصاها ، وهو من هذه الناحية لم ينجح عند المصريين ، وهو من هذه الناحية لا يستطيع أن يقول إنه يشعر بأسف المصريين لفراقه ، أو حزنهم على أن تنقطع بينه وبينهم الأسباب . ولعله على العكس من ذلك يستطيع أن يلاحظ أن المصريين لم يقفوا من نقله موقف المحايد ، وإنما وقفوا منه موقف من

يرضى عن هذا النقل ويبتهج به ، لأنهم يحملونه تبعات ما أصابهم من هذه الآلام الثقال التى ألحت عليهم فى هذه الأعوام الثلاثة .

وإذا كان المندوب السامى لم ينجح عند المصريين من هذه الناحية ، فهو لم ينجح عند الإنجليز من هذه الناحية أيضا ، الإنجليز لا يستطيعون أن يقولوا اليوم إنهم يشعرون بحب المصريين لهم أو ميل المصريين إليهم ، ولعلهم لم يستطيعوا أن يروا نفور المصريين منهم واضحا عنيفا على هدوئه الظاهر كما يرونه الآن ، لا نستثنى من ذلك أيضا إلا أيام الثورة .

أخفق المندوب السامى إذن فى التقريب بين مصر وانجلترا ، فلم يرض أنصار هذا التقريب هنا ، ولم يرضهم هناك . وهو كذلك قد أخفق عند المستعمرين الذين يغلون فى بسط السلطان الإنجليزى فهو لم يصل إلى شىء مما يحرص عليه هؤلاء الغلاة . لم يخف المصريين من الإنجليز ، وآية ذلك أن المصريين ما زالوا اليوم فى موقفهم الذى كانوا فيه منذ أربعة أعوام ، لم يتأخروا عنه قيد شعرة . وأكبر الظن أنهم تقدموا عنه كثيرا . ولم يخضع المصريين لسلطان الإنجليز ، ولم يصرف المصريين عن الاستقلال ، ولا عن السعى إليه ، ولم يقو النفوذ المعنوى للإنجليز ، ولم يقنع أحدا فى الأرض بأن السلطان الإنجليزى قد تغلب على ما كان يعترضه من المصاعب فى وادى النيل حتى أصبح من اليسير بعد زمن طويل أو قصير أن تصبح مصر مستعمرة من مستعمرات التاج .

وإخفاق المندوب السامى عند المصريين ، وإخفاقه عند أنصار الاتفاق وعند غلاة المستعمرين هو الذى جعل نقله من مصر أمرا محتوما ، وهو الذى اضطره إلى هذا الموقف الغريب الشاذ الذى لم يقفه مندوب سام قبله ، فألزمه أن يسافر إلى انجلترا فى مارس ويبقى فيها معلقا ، لا هو بالثابت ولا هو بالمنقول جزءا من الشتاء وفصل الربيع كله وجزءا غير قصير من الصيف ، تختلف عليه عواطف الأمن والخوف ، ويختلف عليه المرض والشفاء ، وتختلف به الظنون وتذاع حوله الأنباء المتناقضة : أيعود أم لا يعود ؟ أينقل أم يعزل ؟ والمصريون يرون هذا كله ، ويردون هذا كله إلى مصدره الصحيح ، وهو أن المندوب السامى قد أخفق وأن مركزه فى مصر قد أصبح مستحيلا ، وأن مركزه فى انجلترا نفسها قد أصبح سخيفا ، وأن الحكومة الإنجليزية لا تبرأ من الحيرة لأنها لا تريد أن تظهر رأيها فى إخفاق مندوبها السامى فيطمع فيها المصريون ، ولا أن ترده إلى عمله فيفسد عليها فى مصر كل شىء .

وأنت تستطيع أن تثق بأن شيئا من الأشياء لم يسىء إلى موقف الإنجليز فى مصر وهيبتهم فى الشرق ، بمقدار ماأساء إليها تعليق المندوب السامى بين الأمل والرجاء من مارس إلى أغسطس . ثم لم يكن بد آخر الأمر من أن تتخذ الحكومة الإنجليزية قرارا حاسما ، فقد أخذ الصيف ينقضى ، وأخذت الأنباء تصل إليها بأن مصر لم تشهد فى يوم من الأيام منذ ألغيت الحماية عصرا ضعفت فيه الوزارة ، وضعفت فيه هيبة السلطان فى نفوس الناس ، وانتشر فيه الفساد فى الحياة المادية والاجتماعية والخلقية والسياسية كهذا العصر

لم يبق بد إذن من أن تعترف الحكومة الإنجليزية أمام الناس بما كانت تعترف به أمام نفسها منذ زمن بعيد بأن مندوبها السامى فى مصر قد أخفق ، وأن عودته إلى مصر ليست شيئا مرغوما فيه . وإلا فقد نحب أن نفهم فيم نقل المندوب السامى إن كان قد نجح أو أصاب شيئا من التوفيق ؟ وما الذى يضطر الحكومة الإنجليزية إلى أن تقطع على مندوبها الموفق سبيل التوفيق إلى إرضاء المصريين إن كان قد وفق إلى إرضائهم ؟ أو قهر المصريين إن كان قد وفق إلى هذا القهر والإذلال ؟

زعموا أن المندوب السامى قد نجح ، وهذا النجاح له صورتان مختلفتان : إحداهما يظهرها بعض الإنجليز ، والأخرى يذيعها بعض المصريين . فأما الصورة الإنجليزية لهذا النجاح فهى هذه التى تراها فى مقال للفننشال تيمس من أنه قد رفع مكانة المندوب السامى ومهابته فى نفس الحكومة المصرية بعد أن كانت هذه المكانة وهذه المهابة قد تعرضت من قبل لخطر شديد . ونحن لا نشك فى أن مكانة المندوب السامى قد ارتفعت وغلت فى الارتفاع ، وامتازت وأسرفت فى الامتياز فى نفس الوزارة المصرية القائمة . وآية ذلك أن الإنجليز لم يريدوا من هذه الوزارة شيئا إلا ظفروا به ، ووفقوا إليه ، ولكن المهم هو مكانة المندوب السامى ، ومكانة الوزارة التى ارتفعت فيها لم ترتفعا فى نفس الشعب المصرى ، وإنما تعرضتا لهذا الخطر الذى اضطر الإنجليز إلى أن ينقلوا مندوبهم ، والذى سيضطر الوزارة المصرية التى كانت ترفعه وتميزه إلى أن تتخلى عن الحكم غدا أو بعد غد ، لأنها لم تبق قادرة عليه . ولعل من أهم الأسباب التى تضطرها

إلى الاستقالة أنها قد أسرفت فى إكبار مكانة المندوب السامى والاستماع له حتى تجاوزت مصالح المصريين وعرضتها للفساد والاضطراب .

أما الصورة الأخرى التى يذيعها بعض المصريين ، فهى أن المندوب السامى قد نجح فى إحداث الفرقة فى الكتلة الوطنية المصرية ، وليست هذه الصورة أقل إثارة للابتسام من تلك . فلو أن المندوب السامى قد فرق المصريين حقا لما نقله الإنجليز ، لأن التفريق الصحيح للمصريين هو الذى يكوِّن فى مصر هيئة قوية حقا ، تستطيع أن تقف على قدميها ، وأن تعتمد على نفسها وأن تتقدم إلى الإنجليز لتنفذ لهم ما يريدون ، مطمئنة إلى أن لها أنصارا من المصريين أقويا ، يستطيعون أن يؤيدوها ويمكنوها من البقاء . فنحب أن نعرف أين هذه الهيئة المؤتلفة التى تعتمد عليها الوزارة القائمة ؟ وإذن فلمَ نقل المندوب السامى ؟ ألم ينقل لأن اعتماده على هذه الهيئة لم يغن شيئا ؟ أم هى هيئة أخرى همت أن توجد وأن تأتلف فلم توفق ، لا إلى الوجود ، ولا إلى الائتلاف ، لأن أحدا لم يستجب لها ، ولم يستمع لدعائها . ولو قد وجدت هذه الهيئة حقا ، ولو قد استجاب الناس لهذه الهيئة لبقى المندوب ليستغلها كما استغل الهيئة التى تؤيد الوزارة القائمة

يجب أن ألّا يخدع الناس أنفسهم ، فإن الإخفاق المطلق الذى أصاب المندوب السامى عند المصريين وعند الإنجليز جميعا ، هو الذى قضى بنقله وهو حين قضى بنقله قضى بشىء آخر ستظهر بوادره فى

وقت قريب جدا ، وهو تغيير السياسة الإنجليزية التى أنفقت هذه الأعوام الثلاثة جادة كادّة ، باذلة ما تستطيع من الجهود الظاهرة والخفية ، ثم ظهر فى وضوح وجلاء أنها كانت عبثا من العبث ومحاولة ضائعة لم تنتج شيئا .